جاكلين الشابّي

رَبُّ القَبائل

ترجمة:

ناصر بن رجب

منشورات الجمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكر حر

شخصيّة إبليس

يُرجِع آرثر جيفري أصل كلمة «إبليس» المُعرَّبة (A. Jeffery, *Foreign Vocabulary*, p. 47-48)، إلى اللّفظة الإغريقيّة *diabolos* الواردة في السبعينيّة، النّسخة الإغريقيّة للبيْبل، وهي اللّفظة التي تترجِم بدورها اللّفظة العبريّة *Sâtân*، «خَصْم» أيّوب، ١، ٦، الذي سيُصبِح «الشيطان» في سفر أخبار الأيام ١، ٢١[٢٩٤]. ولكن من المشكوك فيه أنّ صلة القرابة الأوليّة بين الشّخصيّتَيْن كانت معروفة في السّياق العربي. بالفعل، يرى أ. جيفري أنّ لفظة diabolos اليونانيّة وصلت إلى العربيّة عبر وسائط غير محدّدة. ففي القرآن، تظهر شخصيّة إبليس على أنّها مرتبطة حصريًا بقصّة خلق آدم (أو خلق «بشر» غير مُعرَّف باسم، انظر أسفله سورتَيْ ص والحِجر). وأمام هذه الخليقة المصنوعة من طين أو من تراب[٢٩٥]

---

(٢٩٤) حول تطوّر شخصيّة الملاك-الشيطان الذي ذُكر في العهد القديم والذي يمثّل جزءًا من مجْمَع «بناي آلوهيم» (أبناء الله)، قبل أن يصبح شخصيّة سلبيّة تُغوي البشر، انظر الدّراسة الجوهريّة A. Caquot, «Génies, anges et démons, en Israël»,, *Sources orientales*, t. VIII, Paris, pp. 131-132؛ هناك عناصر لهذه الشّخصيّة الأسطوريّة لا تزال بعد بكلّ وضوح مربوطة (من خلال وسائط وإعادة تركيبات متعدّدة ولا يمكن فكّ رموزها) بشخصيّة «إبليس» القرآنيّة، حتّى وإن أصبح دورها دورًا سلبيًّا تمامًا؛ هذا ممّا يُفسّر تقديم إبليس ككائن يُخالط عن قرب مجمع الملائكة الذي يسمّيه القرآن «المَلأ الأعلى»، على هيئة مَجْلس قبَلِيّ، سورة ص، ٦٩ (بخصوص «مَلأ»)، و٧٤ (بخصوص «إبليس»).

(٢٩٥) هناك عدّة ألفاظ مستَعمَلة في القرآن للإشارة إلى «المادّة» التي خلق منها الإنسان؛ وهي تتناقض، بشكل من الأشكال، مع آيات قرآنيّة تبدو أكثر قدمًا والتي تقول بأنّ الله خلق الإنسان من دم؛ انظر، عل سبيل المثال، سورة العلق، ١-٢، ثمّ «الخَلْق» بمعنى التّقدير، إذ إنّ الحِرَفي عادة قبل أن يَقطَع المادّة، من طين أو جلد أو قماش، يُقدّرها، أي يُعِدّها للقطع، لما يريد أن يصنع منها مزادَةً أو قِربَةً أو خُفًّا [لسان العرب]، سورة القيامة، ٣٨ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾؛ سنرى محاولة لإدخال شيء من التّناسق، من المفترض أن تكون في مرحلة متأخّرة (الفترة المدنيّة)، في سورة السّجدة، ٧-٩، التي تفيدنا بأنّ الله بدأ بخلق الإنسان الأوّل من «طين»، ثم خلق «سلالته» من مجرّد «مَاء مَّهِينٍ»، ونحن نفضّل ترجمة هذه العبارة بلفظة مجرّد «نطفة» من منيّ، وقد تُرجِمت عادة إلى الفرنسيّة بعبارة «eau vile»، وذلك بسبب المعنى المعتاد للجذر «هـ/

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرفض إبليس أن يَسجُد. وعلى العكس من ذلك، نرى (الآخرين؟) «الملائكة» تسجد لآدم كما أمرهم بذلك ربُّهُم. إنّ أصل قصّة سجود الملائكة، بأمر الرّب، قد يمكن العثور عليها في الأدب من أصل يهودي والذي انتقل أيضًا فيما بعد إلى الأوساط المسيحيّة في الكتابات المقدّسة المسمّاة «أبوكريفا»، عند الكاثوليك أو «منحولة»[٢٩٦]، عند البروتِستانت.

إنّ الوضعيّة التي تبدو مشتركة بين إبليس والملائكة، في مُجمَل القصص القرآنيّة التي تحكي عنها، سبّبت إشكالًا. فقد كانت موضوع شروح طويلة داخل المأثور الإسلامي، الذي بذل قصارى جهده للتّمييز بين إبليس وهذه الكائنات الماورائيّة التي ظلّت في خدمة اللّه. ومع ذلك، لا شيء يدلّ حقيقة أنّ خيار القرآن المبكّر كان باتّجاه التّمييز بينهم وبين الجنّ من حيث طبيعتهم. بالإضافة إلى هذا، إذا أخذنا في الحسبان الخلفيّات البيْبليّة لهذه القصص فإنّ «الشّيطان» الذي أصبح «إبليس» كان حقًّا فردًا من أفراد ملائكة الصّفوف الأماميّة قرب اللّه. وبعد امتناع إبليس عن السّجود، الذي اعتُبر حسب القرآن كمظهر من مظاهر الاستِكبار على اللّه وتسفيهًا لأمره وحكمته، طرده اللّه من حضرته. فطلب «الملاك» (؟) السّاقِط [المطرود من

و/ن»؛ غير أنّ فقهاء اللّغة في القرون الوسطى ليسوا على هذا الرّأي؛ إذ هم يُرجعون صفة «مَهِين» إلى الجذر «م/ه/ن» (الذي يمكن أن يكون تسمية)؛ فهم يُفسِّرون كلمة «مهين» الواردة في الآية بمعنى أنّ اللّه خلق الإنسان «من ماء قليل ضعيف»؛ ويبدو أنّ الكلمة كانت تُطلَق في مصطلح الرّعاة (رعاة الإبل والغنم) على الفحل «العَقيم» الذي «لا يُلقَح من مائه» (لسان العرب، في جذر «مهن»)؛ فنكون بذلك أمام مفارقة تشهد على قدرة اللّه على التّخصيب من أصغر كميّة من المنيّ.

(٢٩٦) قد يكون من الممكن تقريب القصّة القرآنيّة بالتّحديد من المقاطع التي يتضمّنها سفر «حكمة سليمان» وفي «حياة آدم وحوّاء». انظر، A. Caquot, «Génies, anges et démons, en Israël», *Sources orientales*, t. VIII, Paris, pp. 144-145؛ وكذلك H. Speyer, *Biblischen Erzhlungen*, pp. 57-58 (ترجمة لمقتطف من «حياة آدم»)؛ هذا الأخير يحدّد للأسطورة القرآنيّة أصلًا مسيحيًّا بصورة حصريّة جدًّا تبدو لنا متعسِّفة؛ إذ إنّ الوسائط بين القرآن وهذه النّصوص التي يُفترَض أنّها من أواخر القرن الأوّل قبل الميلاد أو في أولى بدايات القرن الذي يليه هي وسائط بطبيعة الحال نجهلها تمام الجهل؛ القصص الأصليّة موجودة في كتاب E. Kautzsch, *Die Apokryphen und Pseudepigraphen des Alten testaments*, 2 vol. Tübengen, 1900-1921.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السّماء] من ربّه أن يُمهِلَه إلى يوم الحساب حتّى يتسنّى له أن يلعب دور المُوسوِس للنّاس في الأرض يصدُّهم عن الصّراط المستقيم. فتقبَّل منه ربّه ذلك. وهذه الحريّة لإغواء البشر التي أُعطِيت له تأخذ هنا طابع تحدٍّ أقصى.

بالفعل، يُقدَّم إبليس على أنّه يتعامل مع اللّه تقريبًا كندٍّ لندّه. يمكن أن نقرأ مثلًا في سورة الإسراء، الآية ٦٤، الطّلب التّالي الذي يوجّهه اللّه لإبليس: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، بعبارة أخرى: استَخدِم كلّ الإمكانيات الهائلة التي تحت تصرُّفك لكي تُغْوِيهم. ثمّ يضيف اللّه قائلًا لإبليس أنّه مهما فعل فـ: ﴿إِنَّ عِبَادِي (أي عباده المؤمنين حتّى وإن كانوا أقليّة) لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الآية ٦٥). ومع ذلك، نرى أنّ شخصيّة الشيطان تُقدَّم هنا بصورة مذهلة بشكل خاصّ. فهو يتمتّع بعدد كبير من الخيْل، وهي وسيلة الهجوم التي يحلم بها رجال القبائل. فقد كان الأقوياء من بينهم لا يمتلكون إلّا بعض الأفراس. وبالإضافة إلى ذلك، كان مُعسكر إبليس يعجّ بالمقاتلين. فالرّجال الكُثر تعني قبل كلّ شيء كثرة الأبناء، وكان هذا هو الهاجس الآخر المتواتر للجماعات القبَليّة. ونجد لهذا عدّة أصداء في القرآن عندما يحذِّر العباد بأنّه مهما كان عدد أبنائهم («أولاد» أو «بَنُون» هما تعبيران يقترنان في الغالب بالإبل «أموالكم»)، فلن يشفع لهم ذلك يوم القيامة إذا لم يكونوا من أنصار اللّه (المواضع الرئيسيّة المتعلّقة بعدد الأبناء الذين كانوا يُعدُّون ولا شكّ كمُقاتِلين مُحتَمَلين: المُمتحِنة، الآية ٣؛ المجادلة، الآية ١٧؛ الحديد، الآية ٢٠؛ سبأ، الآية ٣٥ (من خلال صياغة عكسيّة)؛ الشّعراء، الآية ٨٨؛ الإسراء، الآية ٦٤؛ التّوبة، الآيات ٥٥، ٦٩، ٨٥؛ الأنفال، الآية ٢٨؛ آل عمران، الآيتان ١٠، ١١٦). إنّنا نعلَم أنّ هناك، في فضاءات ثقافيّة أخرى غير فضاء ثقافة الجزيرة العربيّة، أوصافًا مُغالية لفعل «فيالق الشّيطان». ولكن يجب أن نتحاشى التّفكير في وجود اقتراض مّا أو تأثير مباشر. فحتّى وإن كان من الممكن أنّ بعض النُّتَف القصصيّة قد شحذت المخيال القرآني، فإنّ القرآن جسّد هذه التصوّرات أوّلًا وقبل كلّ شيء في لغة وسطه الأصلي. والتصوّر المحلّي للجنّ كان في هذا الشّأن كافيًا جدًّا لتغذيّة المخيال القرآني، إذ كانت تغصّ بهم كلّ الأماكن الخالية من البشر، فضلًا عن عمليّات التسلّل المزعومة التي كانوا يقومون بها في الأماكن المأهولة نفسها. بالإضافة إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا، ليس من الواضح لدينا معرفة في أيّ الكائنات كان قد فكّر الذين توجّه لهم هذا الخطاب في الأوّل غير تلك الكائنات المحليّة السلبيّة أو القابلة لكي تصير سلبيّة.

في حالة أخرى أقلّ تواترًا، نجد أنّ اللّه هو الذي يحذِّر النّاس (أو آدم بمفرده) من مَكْر إبليس وعدائه تجاههم. فهو يُقدَّم على أنّه «العدوّ» المُبين الذي يجب ألّا «يُعاهدوه» ولا يتّخذوه «وليًّا» مهما كانت الإغراءات التي يعرضها عليهم. وفي مجال آخر، وحسب إلزامات أخرى للتصوّر، قد يكون هذا الدّور متطابقًا أكثر مع عمل «شيطان» العهد القديم. غير أنّ إلزام «الولاء» يظلّ فيما يختصّ به تحديدًا إلزامًا محليًّا. فهو يدخل مباشرة ضمن التّآلف القَبَلي. فلا يمكن على الإطلاق إقامة حوار بين اللّه والبشر. فالأمر يتعلّق دائمًا بمخاطبَة. ولا توجد أيّة إمكانيّة لتبادل أيّ كلام وذلك لأنّ شروط التّساوي بين الطّرفين غير مستوفاة أبدًا. ومع ذلك، سنتذكّر أنّه، في مرحلة يُحتَمل أن تكون من مراحل الوحي السابقة، كان الملوك الطّغاة قد قُدِّموا أيضًا على أنّهم شخصيّات تتحدّى اللّه. وهي بالخصوص حالة فرعون الواردة في قصص القرآن الموسَويّة. إلّا أنّ فرعون، على العكس من إبليس، لم يكن أبدًا قادرًا على أن يتطاوَل على اللّه. فلم يكن فرعون يتحاور إلّا مع أعوانه (مثلًا، السّورتان غافر، الآية ٣٦؛ القصص، الآية ٣٨). هذا لأنّ القطيعة بين الطّبيعة وما فوق الطّبيعة التي سبق أن أكّدنا عليها تتطلّب دائما وجود وساطة.

فمنذ تلك اللّحظة، حينما أطرِد إبليس من جوار اللّه وفقد بذلك مكانته (الملائكيّة؟) السّابقة، اختفى اسمه من السّرد القرآني. واسم «الشّيطان»، وهو اسم مُشَخْصَن بطريقة مّا، هو الذي يأخذ مكانه. حينئذ، يأمر اللّه النّاسَ بشكل دائم على أن يَحذروا «الشّيطان» (بمدلول اسم عَلَم) أو «الشّياطين» (بمدلول اسم جنس مشترك). بالتّأكيد، هذا التّحويل في التّسمية هو على الأرجح ليس خاليًا من الدّلالة. فحتّى وإن كان بإمكاننا أن نجد بعض التّوازيات في السّرديّات البيْبليّة تتعلّق بالملائكة السّاقِطين (مثلًا، رؤيا، ١٢، ٧-٩؛ ولكن من غير المؤكّد أن هذه القصص كانت معروفة)، إلّا أنّ البواعث المحليّة تظلّ بدون شكّ جوهريّة بالأساس. وبالفعل، يكون من المحتَمل أنّ الخطاب القرآني استطاع هكذا التّواصل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من جديد مع شخصيّات محيطه المحليّة. نحن نعرف أنّ الجنّ كانوا يُدعوْن «شياطين» في سياقات متنوّعة لم تكن كلّها سلبيّة. فقد كان لهم دور المُلهِم الإيجابي لدى أصناف مختلفة من المُلهَمين. فالشّعراء بصفة خاصّة كانوا يقيمون مع هذه الكائنات الخارقة للطّبيعة علاقة يمكن أن نقول عنها إنّها علاقة «ولاء». وهذا هو بدون شكّ ما يريد القرآن أن يزيله مهما كان الثّمن من المعتَقد والتصوّر الجمعِيَّين.

يرد اسم إبليس في مقاطع قرآنيّة متفاوتة الطّول تتوزّع في تسع سُور مختلفة. غالبًا ما يتعلّق الأمر فيها بقصّة مرتبطة بشخصيّة الإنسان الأوّل (يُذكَر باسمه «آدم» أم لا). يبدو أنّ هدف هذه القصص، في كلّ الأحوال، هو إبراز القطيعة التي لا رجعة فيها لهذا الجنّ-الملاك؟ مع اللّه، وبالتّالي تنجرّ عواقب وخيمة إذا ما سوّلت لبعض النّاس أنفسهم واتّخذوه وليًّا من دون اللّه. وعلى النّقيض، اللّه هو بطبيعة الحال الذي يُقدَّم على أنّه «وليّ» الإنسان ولا غير سواه. إنّ عدائيّة إبليس تجاه الإنسان يقع تقديمها على أنّها عداء أبدي من حيث إنّها مبنيّة على القطيعة النهائيّة مع اللّه. فإبليس هو عدوّ اللّه قبل أن يكون عدوّ الإنسان. إلّا أنّ البشر بحاجة إلى ولاء كانوا ينتظرونه. فحتّى يكون لهم وجود داخل عالم القبائل، كان يتوجَّب عليهم، مهما كانت الظّروف، الدّخول في علاقة اتّصال وولاء مع قوّة خارقة للطّبيعة. ولن يستطيعوا إذن، ضمن الشّروط التي يصفها القرآن، عقد هذا الولاء مع شخصيّة إبليس التي يبدو أنّ «الشيطان» كان يمثّل وجهها السّلبي، تلك الشّخصيّة التي نُصِّب بمقتضاها على أنّه «الغاوي» الذي يَكيد للنّاس. ومع هذا، يمكن أنّ نذهب إلى حدّ التّساؤل ما إذا كان هذا التّغيير في الاسم، في القرآن، يمثّل مسارًا مشابها لشيطنة «لوسيفر»، الذي كان هو أيضًا في البدء ملاكًا من نور مرصودًا لخدمة اللّه. ونحن تعترضنا أحيانًا جدالات حول غموض هذه الشّخصيّة الشيطانيّة وغموض طبيعتها في المأثور الإسلامي: فقد قيل إنّ بعض المتصوِّفة كانوا يعتبرون إبليس أكبر الموحِّدين اضطُرَّ للعصيان لكي يظلّ وفيًّا لإيمانه (انظر المقال: «Iblîs», A. J. Wensink et L. Gardet, dans l'*Encyclopédie de l'Islam*).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقاطع القرآنيّة بخصوص إبليس

- سورة ص: مقطع من ١٤ آية قصيرة (٧١-٨٥)؛ الآيات ٧١-٧٨ فيها تبرير لرفض إبليس السّجود إذ يقول إنّه خُلِق من «نار» (ونحن نفهم «نار» بمعنى «لَهب النّار»؛ وهي المادّة التي صُنِع منها الجنّ)؛ من الجدير بالملاحظة أنّ الخليقة التي صُنعَت من «طين» لا تحمل اسم آدم؛ قيل عنها فقط إنّها «بشر»؛ في الآيات ٧٩-٨٥، نُصِّب إبليس بمثابة الغاوي للبشر إلى يوم يُبعثون، وذلك في إطار حوار مع اللّه.

- سورة سبأ: مقطع من آيتيْن (٢٠-٢١)؛ وهو يتحدّث فقط عن إبليس بصفته غاويًا للبشر مع التّذكير بتنصيبه بهذه الصّفة؛ هذا المقطع هو عالة إذن على مقاطع قرآنيّة أخرى سابقة تتحدّث في هذا الموضوع.

- سورة الشّعراء: آية قصيرة واحدة، ٩٥، تندرج في قصّة إبراهيم وشعب أبيه الذين يعبدون الأصنام (الآيات ٦٩-١٠٤)، التي تقول ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾؛ أي أنّ مَن يحارب مع إبليس، هؤلاء الجُنود، مآله جهنّم؛ وهذه هي المرّة الوحيدة التي ترد فيها هذه الكلمة «جنود»، وهي من أصل إيراني، في علاقة مع إبليس. وهي تُستعمل بالإضافة إلى ذلك للإشارة إلى الجيوش التي هي سواء كانت جيوشَ طُغاة الأرض مثل فرعون (القصص، ٣٩-٤٠)، أو جيوشَ الملوك العادلين مثل سليمان (النّمل، ١٧-١٨)، أو جنودًا سماويّة تُعين المؤمنين على النّصر، أو «جنود اللّه» (الفتح، ٤-٧؛ الأحزاب، ٩؛ التّوبة، ٢٦-٤٠)؛ كما نجد أيضا صيغة جمع الكثرة «جُنْد» في نفس المعنى، مثلًا في سورة الصّافّات، الآية ١٧٣؛ لفظة جنود وردت ٢٢ مرّة، وجُنْد ٧ مرّات؛ نلاحظ من جهة أخرى أنّ الأمر يتعلّق بالمقطع الوحيد الذي يرد فيه اسم إبليس دون أن يكون في علاقة مع مشهد عصيانه أمر اللّه أو في دور الشّيطان الغاوي؛ في العادة، كان من المفروض في هذا السّياق أن ننتظر كلمة «شيطان»، بمفهوم اسم عَلَم، كما سنرى ذلك في مقاطع أخرى.

- سورة طه: مقطع من ١٢ آية (١١٥-١٢٧)؛ الآية ١١٦ مُخصَّصة لرفض إبليس السّجود أمام آدم (قارِن مع سورة ص التي لا يُذكَر فيها اسم آدم)؛ ولكن الأمر يتعلّق هنا بمجرّد تذكير «وَإِذْ قُلْنا»، أفعال إبليس لا تحظى بأيّ توسُّع؛ ودوره كغاوٍ أُشير إليه ضمن خطاب يُوجّهه اللّه لآدم ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾؛ ولكنّ الموضوع الحقيقي لهذا المقطع هو آدم الذي يُذكر باسْمِه في الآية التقديميّة، ١١٥ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ﴾؛ يُذكِّر اللّه هنا بأنّ آدم ضَعُف عزمه ولم يُصابِر على الوفاء للّه بعهده، ولا على حِفظ ما عُهِد إليه؛ بقيّة المقطع -خارج الآية ١١٦ التي تُذكِّر بخطيئة إبليس- إلى غاية الآية ١٢٦ كلُّه مُخصَّص لنكبته وما أصابه فيها من بلاء وشقاء؛ وبما أنّ آدم عصى ربّه عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غير قصد واتّبع ما أغواه به الشّيطان (استعمال اسم علَم)، فقد وقع طرده من الجنّة، ويبدو أنّ هذه الجنّة مماثلة لجنّة المستَقبل، يأمر اللّه آدمَ أن يَهبط منها هو وزوجه التي لا يُسمّيها القرآن، آية ١٢٣ ﴿اهْبِطا منها﴾؛ أهميّة هذا المقطع تكمُن في أنّ مَن أغوى آدم يُذكَر اسمه «الشّيطان»، الآية ١٢٠ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ (بوظيفة اسم علم)؛ مقاطع قرآنيّة أخرى يبدو أنّها تُظهر تماثلًا بين شخصيّة «الشّيطان» هذه وشخصيّة «إبليس»؛ وهو على كلّ حال الرّأي الذي سيتمسّك به مجمل المأثور الإسلامي؛ فسيبذل قصارى جهده ليشرح كيف أنّ إبليس، بعدما أُطرد من الجنّة، سيتحايل رغم كلّ شيء لكي يعود إليها [فقد طلب من الحيّة أن تُدْخله في فمها حتّى يدخل على آدم بعد أن رفض خزَنة الجنّة السّماح له بالدّخول] ويُصبح الشّيطان الذي يُغوي آدم (الطّبري، تاريخ، ج ١، ص ٧٩؛ وحسب سيدرسكي، نفس المصدر، ص ١٥، يمكن العثور على أصل هذه القصّة في أدب الأناجيل المنحولة المسيحيّة)؛ والقرآن لا يتناول على الإطلاق نقطة «عودة إبليس إلى الجنّة» حيث يوجد آدم؛ فهو يبدأ من الجديد القصّة في الوقت الذي سيبدأ إبليس، تحت اسم «الشّيطان»، في لعب دور الحيّة البيْبليّة الواردة في سفر التّكوين (٣، ١).

- سورة الكهف: آية واحدة، (٥٠)؛ وهو المقطع الشّهير الذي قيل فيه إنّ إبليس «كان مِنَ الجِنّ» الشّيء الذي أثار تفاسير وتخمينات متعدِّدة؛ فبعد تلميح خاطف لرفضه السّجود لآدم، تقع مناشدة النّاس عدم اتّخاذ إبليس وذُرِّيته «أولياءَ» من دون اللّه لأنّهم «عَدُوٌّ» لهم؛ في هذه الآية، يبدو إذن أنّ رابط قرابة مّا أُقيم بين إبليس وجنّ كلّ الأزمنة (فليسوا هم إذن «الجنّ البيْبليّين»، الذين هم بدورهم من أصول مختلفة، مَن سنراهم يلعبون هذا الدّور)؛ يظهر إذن أنّ الشّخصيّة الشيطانيّة من أصل أجنبي التقت بالشّخصيّات المحليّة، وامتثَلت لمنطقها وتقمّصت كلّ الشّرور ومظاهر الرّعب التي كان مجرّد حضورها المزعوم يثيرها داخل عالم القبائل.

- سورة الإسراء: مقطع من أربع آيات (٦١-٦٥)؛ خُصِّصت الآية ٦١ لرفض إبليس السّجود لآدم؛ الآيات من ٦٢ إلى ٦٥ تتحدّث عن دور إبليس في غواية البشر، وهو دور يُقدَّم من خلال حوار بين إبليس واللّه (أنظر أعلاه، الآية ٦٤ المتعلّقة بخيْل ورجال إبليس؛ ونفس هذه الآية ٦٤ تُطابِق بين عمل إبليس وعمل الشّيطان (اسم علم)؛ يتعلّق الأمر بواحد من المقاطع حيث نرى هويّة الشّخصيّتيْن لا تحتمل أيّ شكّ؛ إذ يبدو أنّ إبليس والشّيطان كانا قد اعتُبرا بمثابة نفس الشّخص: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ تُقدَّم الكائن الشيطاني على أنّه قادر في نفس الوقت على مهاجمة البشر، من خلال نظرة ذات طبيعة رؤيَويّة، ولكن أيضًا قادر على التّصالح معهم من خلال «مُشارَكَتهم» في «أموالهم» (تجارة القوافل، أو «عدد رؤوس قطعان المواشي»؟)، وكذلك [يُعزِّز] قدرتهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الإنجاب-عدد الأولاد؛ فهل يتعلّق الأمر بتصوُّر محليّ أم بتحويل حدث من خلال صورة البيْبل للرّب الذي يَهَب الأولاد؟

- سورة الحِجر: مقطع من ١٥ آية قصيرة (٢٨-٤٣)؛ الآيات من ٢٨ إلى ٣٤ تتحدّث عن رفض إبليس السّجود أمام «بَشَر» (لا يرد اسم آدم هنا، ولذلك يمكن تقريب هذا المقطع من سورة ص، الآية ٧١)؛ وهذا البشر خُلق ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الآية ٢٨)؛ لم تعد المادّة التي خُلق منها الإنسان هي «الطّين» (كمادّة بناء مثل تلك التي اسْتُعمِلت في بناء «صَرْح» فرعون، وفي نفس الوقت المادّة التي استُخدِمت في صُنع الكائنات الحيّة كالإنسان أو الطّير، ترد كلمة «طين» ١٢ مرّة)؛ إنّ المادّة التي سيُخلَق منها الإنسان (الآية ٢٨) توصف بتعبير معقّد غير واضح ممّا يُفسِّر أنّ المترجمين إلى اللّغات الأجنبيّة ترجموه بطُرق مغايرة نوعًا مّا: «صَلْصال» الذي اختَلف أهل التأويل في معناه قيل إنّه الطّين الذي يُصنَع منه الفخّار «فإذا نقَرتَه صلَّ فسمِعتَ له صلْصلة»؛ «الحمأ» قيل إنّه يعني الطّين المُنْتن الذي يُستَخرج من قعر البئر عند تنظيفه؛ «مسنون» الذي يُوصَف به الحمأ قد يعني سواء «االأملَس الصَّقيل»، أو الطّين الذي تغيّر بحكم «صناعته»؛ فيكون الإنسان قد خُلِق من «طين نَتِن مصنوع كما يفعل الخزّاف»؟؛ هذا التّعريف قدّمه اللّه كما قدّمه أيضًا إبليس الذي يُعيد الكلام الإلهي (نجد نفس العبارة في سور الحِجر، ٢٦، ٢٧؛ سورة الرّحمن، ١٤؛ تُضيف أنّ الإنسان خُلق ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾). الآيات ٣٥-٤٢ تتناول دور إبليس كشيطان غاوٍ في إطار حوار مع اللّه والذي يمكن أن نقرِّبه في جزء منه من القصّة المماثلة في سورة ص، ونجده أحيانًا يُعاد حرفيًّا؛ يجب بالتأكيد أن نطرح السّؤال ما إذا كان الوحي هو الذي يُعيد نفسه هنا أم أنّ المصحف القرآني المداوَل هو الذي أعاد نَسْخ جزء من قصّة كانت معروفة سابقًا؛ ولكن الصّعوبة تكمن في محاولة العثور على نقطة انطلاق، في ظلّ انعدام قصّة أوّليّة مُفتَرَضة.

- سورة الأعراف: مقطع يتكوّن من ١٧ آية (١١-٢٨)؛ الآيات ١١-١٣ خُصِّصت للحديث عن رفض إبليس السّجود أمام آدم وهبوطه من السّماء؛ يصرّح إبليس أنّه خُلق من «نار»، في حين أنّ آدم خُلق من «طين»، انظر أعلاه الإفادات حول هذين اللّفظيْن؛ المقطع ١٤-١٨ يصف (في إطار حوار مع اللّه) تنصيب إبليس كشيطان يُغوي [الوَسْواس] العباد وإمهاله إلى يوم البعث والحساب (فهو سيقعد لهم يُغويهم ويصدّهم عن صراط اللّه المستقيم بلا كلل أو ملل؛ فهو يصرخ في الآية ١٧: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾، وهذه صيغة أخرى أيضًا من صيغ المبالغة والغلوّ يمكن مقارنتها بما جاء في الآية ٦٤ من سورة الإسراء)؛ الآيات ١٩-٢٦ تركّز على ارتكاب آدم الخطيئة ثمّ «هبوطه» من الجنّة حيث كان يسكن مع زَوْجه؛ فقد غرّه الشّيطان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفتنه (يختفي اسم إبليس تمامًا)؛ الآيتان ٢٧-٢٨ هما نداء ونُصْح لـ«بَنِي آدَم»؛ وإذا ما واصلوا اتّباع طريق آبائهم فذلك يُعَدّ «فِتْنة» الشّيطان، أي يَصْرفهم عن الدّين؛ الآية ٢٧ تنتهي بجعل الّذين لا يؤمِنون (بالوحي الذي نزل على محمّد) أوْلِياءَ للشّياطين. إنّ هذا المقطع، وهو يُجسّم القطيعة بين الاسمَيْن «إبليس» و«الشّيطان»، التي أُشير إليها سابقًا، يبدو خاصيّة تميّز تصوُّرًا يستخدِم نُتَفًا من قصّة من أصل بيْبلي أو شبه بيْبلي لكي تتوصّل إلى أن تُماهي بين الكائنات السّلبيّة المستَورَدة والشّياطين، أي الجنّ المحليّين الذين كانوا يُروِّعون رجال القبائل ويقضّون مضاجعهم، ولكن في نفس الوقت كانوا أحيانا يستطيعون مدّ يد العون لهم. غير أنّ هذا الاحتمال الثّاني كان يرفضه القرآن رفضًا باتًّا في كلّ مرّة يمكن أن يكون فيها مُمكِنًا.

- سورة البقرة: مقطع يتكوّن من ٩ آيات، أحيانًا تكون طويلة (٣٠-٣٩)؛ هذا المقطع القرآني -في الحالة التي يوجد عليها في المصحف الحالي- يقترح ثلاث قصص متتالية. الأولى والثالثة تتركّب كلّ واحدة منهما من بعض الآيات، والثّانية تتركّب من آية واحدة (٣٤) تتعلّق برفض إبليس السّجود لآدم. وفي هذه الحالة الأخيرة، من الواضح أنّنا أمام تذكير، فالقصّة بأكملها كانت قد وردت في أماكن أخرى،انظر المقاطع أعلاه، وبالخصوص السّور ص، والحِجر (لا يوجد اسم آدم فيهما) الأعراف (حيث نجد اسم آدم مذكورًا).

أولى القصص تمتدّ من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٣. وهذه القصّة، من حيث محتواها، هي قصّة غير مسبوقة في القرآن. فلا نعثر لها على أيّ أثر فيه حتّى ولو كان ذلك في شكل إيحائي. يُخاطب اللّه الملائكة ويُخبِرهم بأنّه يجعل ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. واللّفظ يُشير إلى مَن تُعهَد إليه وظيفة حُكْم جماعة أو أرض يقوم فيها مقام السيّد الحقيقي بعده أو يُمثّله عند غيابه[٢٩٧]. بقيّة المقطع تُظهِر أنّ الأمر يتعلّق فعلا «بالتّمكين في الأرض»،

---

(٢٩٧) نجد استعمالًا آخر لكلمة «خليفة»: الأمر يتعلّق بداود الذي جعله اللّه «خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ» (نفس الصّيغة التي استُعمِلت بخصوص آدم)؛ وكان المنتَظَر من هذا الخليفة أن يحكُم «بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ» كما جاء ذلك في سورة ص، ٢٦؛ يجدر بنا أن نذكّر هنا بأن مَلَكَة إقامة العدل والحق هي أهمّ الخصال التي يجب أن تتوفّر عند أيّ حاكِم في المجتمع القَبَلي العربي؛ نعثر أيضًا على استعمالٍ لفعل مشتق من الجذر «خ/ل/ف» يتعلّق بهارون عندما طَلب منه أخوه موسى أن يكون خليفته في قومه إلى حين أن يرجع بعد صعوده على الجبل لملاقاة ربّه، سورة الأعراف، ١٤٢ ﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ (في مقطع آخر، نجد هارون فقط بمثابة «وَزِير»، وهي لفظة مُقتَرَضة من الفارسيّة *vizir* التي يمكن أنّها كانت تعني «القاضي» في اللّغة الفهلويّة، وهي المرّة الوحيدة التي ترد فيها في القرآن، سورة الفرقان، ٣٥ ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدليل أنّ اللّه سيعلّم آدم ﴿الأسماءَ كلَّها﴾ ليتسنّى له السّيطرة على الأرض. في القرآن، اللّه هو الذي يبقى السيّد حتّى في تسمية الكائنات والأشياء. في حين نرى في البيْبل (خَلق، ٢، ١٩)، أنّ آدم هو مَن كان يُسمّي مخلوقات الأرض والأشياء بأسمائها. وما إن أعلن اللّه عن مشروعه بإقامة «خليفة على الأرض» حتّى صاح الملائكة معترِضين موضّحين أنّ هذا الخليفة سيَسْفك فيها الدّماء. ثمّ أضافوا قائلين، إذا كان المقصود بذلك هو عبادة اللّه، فهم وحدهم، ولا أحد غيرهم، يُسبِّحون بحمده ويُقدِّسون له. حينئذ، تقع مواجهة بينهم وبين آدم. ونرى آدم يبدو في مظهر مَن هو أهل لممارسة السّلطة في الأرض، كيف لا، وهو يعرف الأسماء كلّها (أسماء كلّ شيء). بالمقابل، نرى الملائكة عاجزين عن الإجابة عندما يسألهم اللّه. فيما بعد، وفيما يبدو بسبب جهلهم، سيُطْلَب منهم السّجود لآدم. إبليس يمتنع عن فعل ذلك، الآية ٣٤. في هذا المقطع، نلاحظ أنّ القصّة تبتعد تمامًا عن حكاية خلق الإنسان التي نجدها في كلّ المشاهد التي تتعلّق بسجود الملائكة. إنّ موضوع الخَلق يقع تجاهله هنا تجاهلًا مطلقًا. تواصل القصّة مع خطيئة آدم بإيعاز من الشّيطان (لا يُذْكر اسم إبليس مجدّدًا). يحذّر اللّه آدم من اتّباع «الشّيطان» (اسم علم) الذي سيكون «عدُوًّا» له (أي ضمنيًّا ليس «وَليًّا» له). هذا المقطع الذي لا يحتوي على أيّة إشارة لخلق آدم غريب جدًّا من أنّه، ولأوّل مرّة، يظهر آدم وهو مُقيم في الأرض وليس في الجنّة السّماويّة (الآيات ٣٠-٣٣). وبالمقابل، نرى السّرد الذي يختم المقطع (الآيات ٣٥-٣٩) يضع آدم من جديد على ركح الجنّة السّماويّة، وذلك بدون أدنى تفسير لهذا التّغيير في المكان. في المقطع الأوّل، يتراءى لنا القرآن وهو يجاري البيْبل الذي كان ينظر إلى جنّة عدْن على أنّها الجنّة «الأرضيّة». ثمّ فيما بعد، تستنسخ القصّة نفسها مستعيدة نظرتها القرآنيّة المعتادة حول غواية آدم وخطيئته في رحاب الجنّة السّماويّة. من الواضح أنّ الأمر يتعلّق هنا بمقاطع ذات كرونولوجيا إيحائيّة مختلفة جمعها المصحف معًا وذلك على الأرجح بسبب تقارب الموضوعيْن اللّذين يتعلّق كلاهما بشخصيّة آدم. هذان المقطعان المتباينان يبدو أنّهما يلبّيان أهدافًا قصصيّة قد تغيّرت. وليس هناك أفضل من هذا كدليل لإظهار كم أنّ القصص المتعلّقة بآدم هي قصص جانبيّة قياسًا بالمساق المركزي للخطاب القرآني. فالقرآن يستغلّ هذا الموضوع إلى حدّ التّضارب وتفكّك اللّحمة، لا لشيء إلّا لتوضيح الموضوع الآني لحديثه، دون أدنى اكتراث لمعرفة ما إذا كان هناك انسجام أم لا بين هذه القصص المختلفة.

ومرّة أخرى، نرى هنا أنّه لا فرْق بين إبليس والملائكة. وعدم التّفريق هذا لا يمكن أبدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استنتاجه من القرآن. فالملائكة، مثل الجنّ، هم قبل كلّ شيء «حاملو رسائل». غير أنّهم، خلافًا للجنّ، «رُسُل أمينة». تجدر الملاحظة، بالفعل، أنّ كلمة «مَلَك»، في العربيّة كما في سائر اللّغات السّاميّة، له بالضّبط معنى اللّفظ العربي «رسول» (الحامل لرسالة [المُفترَض] بأمانة[٢٩٨]. وهذا هو الاسم الذي أُطلِق في المقام الأوّل على وسيط الوحي الذي أُنزِل على محمّد في سورة التّكوير، الآية ١٩ (وهي سورة مكيّة تبدو من السّور المبكّرة). بالفعل، في هذه السّورة يتعارض مفهوم «الرّسول» كحامل أمين للرّسالة مع مفهوم «الشّيطان» الذي يصرّح برسائل كاذبة أو رسائل يختلقها من تلقاء نفسه. فالشّيطان، بمعنى آخر الجنّ المألوف، السّاعد الأيمن للشّعراء الملهَمين الذين يريد محمّد أن يتميّز عنهم بأيّ ثمن، لا يجلب إلّا النّحس ولا يأتي إلّا بالكذب. ولذلك يجب إقصاؤه وطرده رميًا بالحجارة فهو «رجيم»، الآية ٢٥ من سورة التّكوير. بالرّغم من هذا الاختلاف في المنزلة بين الشخصيّة الإيجابيّة لـ«الملائكة الرُّسل» والشّخصيّة السّلبيّة لـ«الشّياطين»، الذين يمكن أن نسمّيهم الجنّ المتواصلين [يتواصلون مع الغير]، فإنّ الأمر يتعلّق في كلتا الحالتين بكائنات وسيطة. في مقدورنا أن نتصوّر أنّه كان بإمكانهما الاشتراك في نفس الطّبيعة، على الأقل لكي يُجسِّما، في التصوّر الجمعي، قابليتهما للتنقّل عبر كلّ الفضاءات التي كانت تُعتَبر مُتَعذِّرة تمامًا على العباد.

سنرى، بخصوص إبليس، أنّ A. J. Wensink و L. Gardet في مقالهما في دائرة المعارف الإسلاميّة يشاطران، بالفعل، الرّأي السّائد والقائل بأنّ الكائنات الشرّيرة (ومن بينها شخصيّة إبليس) يُنظَر إليها ككائنات من «نار» (لفظ مؤنّث)، في حين أنّ الملائكة خُلقوا من «نور». نشير إلى أنّ العالِمَيْن لا يوضّحان أنّ «نور» (لفظ مذكّر) يعني حصريًّا «ضياء الكواكب ليلًا». ووجهة النّظر التي يتوسّعان فيها موجودة بالفعل. يجب فقط توضيح أنّها وجهة نظر ما بعد قرآنيّة. والدّليل على ذلك أنّ طبيعة الملائكة ليست أبدًا محدَّدة بشكل واضح جليّ في القرآن. نستطيع بكلّ سهول أن نحاول تتبُّع ظهور وجهة النّظر التّقليديّة الإسلاميّة من خلال التّفاسير القرآنيّة، والأحاديث النّبويّة والأخبار التّاريخيّة، متسائلين في نفس الوقت عن تصوُّر طبيعة

(٢٩٨) فيما يخصّ الرّسالة الرّئيسيّة للملائكة في العهد القديم، انظر أسفله، الهامش ٢٩٩؛ في المنظور القرآني، تكون الرّسائل التي يتمّ تبليغها تتحدّث بطبيعة الحال عن «الغيب»، بمعنى «المصير المنتظَر»، انظر أعلاه، الهامش ٢٦٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجنّ الواردة في المصادر الأدبيّة والمُعجَميّة لأنّ القرآن يبدو أنّه لم يَقدِر بتاتًا على محوها والقضاء عليها. في جميع الأحوال، يكون من المفيد تناول هذا المشكل برمّته من جديد على قواعد مختلفة. وعلى سبيل المثال، بإمكاننا محاولة تجديد الأفكار حول الطّبيعة المتضادّة بين الجنّ والملائكة بطرح أسئلة بخصوص ما يميّز بين «نار» و«نور». يبدو أنّه من المفيد، على أيّ حال، أن نعتبر أنّ الكلمتيْن تشيران معًا إلى طبيعة هوائيّة. والتّفسير الخاطئ، بخصوص المخيال الذي قد نفترضه، قد لا يكون بالفعل كامنًا هنا فيما يتعلّق بالرّأي الذي يجعل من الملائكة كائنات من «نور». والتّمايز بين هذه الكائنات الهوائيّة يمكنه أن يُقام تمامًا انطلاقًا من أنّ الجنّ القرآنيّين المُشَيْطَنين كان يُفضَّل اعتبارهم بمثابة رُسل نهاريّة (حسب التّعبير القرآني) غير أمينة، خُلقوا - ليس من نار وهو شيء مستبْعَد - بل من شمس النّهار الحارقة. وبالعكس من ذلك، الملائكة (مَلَك، لفظ مُقتَرَض[٢٩٩])، أو الرسُل (رسول، لفظ محلّي مأخوذ بطبيعة الحال في معناه القرآني القديم الذي جاء في سورة التّكوير، الآية ١٩)، اعتُبِر الصّنفان بمثابة «رُسُل أمينة»، اختير لها أن تكون كائنات من «نور اللّيل»، نور كواكب الهَدْي وعذوبة الطّقس. فهذا هو النّور الذي كان يسمح للقوافل بالتّنقل. وهي التي، مجازًا، ستُستَخدَم في القرآن كرافد لانتشار القول الحقّ. ونور الهدي هذا كان قبل كلّ شيء هو نور «القمر»، لفظ مذكّر. وبالعكس، الشّمس هي لفظ مؤنّث. سنرى بالفعل الأهميّة القصوى التي يكتسيها «النّور» في القرآن كصورة

---

(٢٩٩) إنّ كلمة «mal'âk» في الكتابات البيْبليّة هي في الأصل كلمة مقتَرضة لعلّها تعود إلى فترة حكم الملك داود؛ حسب A. Caquot, *Génies, anges et démons, en Israël, op. cit.*, p. 123، فإنّ الاقتراض في الواقع مصدره اللّغة الفينيقيّة (اللّفظة كانت موجودة أيضًا في الأوغاريتيّة)؛ بالمقابل، الجذر «ل/ء/ك» لم يكن موجودًا لا في العبريّة ولا في الآراميّة؛ في اللّغة العربيّة، خارج اللّفظة «ملأك» التي ستُعرّب من خلال جعلها مفردًا في صيغة «مَلَك»، فإنّ الجذر «ل/ء/ك» هو جذر ذو استعمال محدود (نجد له أيضًا صيغة قلب «ء/ل/ك»)؛ إنّ التّوضيح الهامّ جدًّا الذي قدّمه A. Caquot فحواه كالتّالي: «ملأك» الفينيقي كان رسولًا لأحد الملوك يُبلّغ عنه رسالة دون أن ينتظر ردًّا عليها، فكان يتكلّم بصيغة المتحدِّث، عوضًا عن الملك نفسه، وسيكون لملائكة العهد القديم، في بداية الأمر، نفس الدّور بالضّبط «عندما يكون ربّ إسرائيل قد اتّخذ ملامح مَلِك الثّقافات الحَضَريّة...»؛ نلاحظ كذلك أنّ لفظة «رسول»، في استعمالاتها القرآنيّة القديمة، يبدو أنّها كانت تحمل معنى مماثلا من حيث طبيعة الرّسالة التي هي دائمًا في اتّجاه واحد ومبلِّغة تبليغًا أمينًا مطلقًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكواسطة للإيمان. أمّا فيما يتعلّق بجنّ اللّيالي المظلمة، خلافًا لإخوانهم جنّ النّهار ولشخصيّة إبليس-الشّيطان المتضخّمة التي فرضت نفسها لتمثيلهما، يكونون قد ظلّوا غير مميَّزين يسكنون الظّلمات التي لا ينفكّ القرآن يعارض بينها وبين ليل الوحي المُنير[٣٠٠].

إنّ دور إبليس، كما رأينا، هو دور محدود في السّرديّات القرآنيّة. فلم يرد فيها إلّا تسع مرّات فقط. لا واحدة منها يبدو أنّها تعود إلى أولى فترات الوحي إلى محمّد. بينما بعضها هو على الأرجح عبارة عن تكرار ويمكن أن يكون من الفترة المدنيّة. إنّ القصص التي تضع إبليس على الرّكح تجمع بين عصيانه اللّه وظهور شخصيّة الإنسان من الطّين أو من التّراب. وهذا الإنسان لم يُسمَّ آدم إلّا في آيات ليست على الأغلب أقدم الآيات. فإذا ما أردنا استحضار الكرونولوجيا البيْبليّة فإنّ خطيئة إبليس تكون إذن قد حدثت في اليوم السّادس، قبل أن يقع تنصيب الخليقة الإنسانيّة في الجنّة. وبالمناسبة، القرآن يفصل في عدّة مرّات بين القصّتيْن. ونذكّر بأنّ القرآن، ما عدا في آية متأخّرة، يبدو أنّه يعتبر الجنّة على أنّها فضاء سماوي وليس أرضيًّا، وهذا خاصّ به. ولكن خلافا للجنّة المقبِلة المعدَّة للأبرار والتي تحمل نفس الاسم، فإنّ وصف الفضاء السّماوي الأوّل الذي استقرّ فيه إنسان التّراب يكاد ينعدم تمامًا. فقط توجد فيه الشّجرة التي ستُستَعْمل كذريعة لنسيان آدم وخطيئته. كما لا توجد أيّ قصّة من بين هذه القصص جاءت متساوقة مع كرونولوجيا الخَلق. إذ لا حديث عن عمليّة الخَلق والأيام السّبعة التي استغرقتها إلّا في سبع آيات معزولة. وهي آيات ترد في مقاطع تبدو أنّها ذات أسلوب مكّي متأخّر. مقطع وحيد متكوّن من بعض آيات، في سورة فُصّلت، ٩-

---

(٣٠٠) تردّدت كلمة «ظُلُمات» في القرآن ٢٣ مرّة؛ وجاءت ١١ مرّة مقترنة بكلمة «نور» في صيغة واحدة؛ وهذان الرّقمان هما نسبيًّا غير مرتفعين؛ فهما يُظهِران أنّ موضوع الرّعب اللّيلي للفضاءات المظلمة كان قد استُغلّ نسبيًّا استغلالًا قليلًا وأنّه لم يقع استعماله استعمالًا مجازيًّا إلّا بشكل ضئيل؛ أمّا لفظة «ظُلْم»، التي هي من نفس الجذر والتي تشير إلى الإجحاف والعمل الجائر، كعصيان للقوّة الخارقة للطّبيعة والمروق عن طاعتها، فهي بالمقابل متواجدة بكثرة في القرآن؛ فالإنسان «ظالِم»، ليس تجاه البشر الذي يسلّط عليهم قهره، ولكن قبل كلّ شيء ضدّ اللّه لأنّه يبحث عن التّنافس والتّصارع معه؛ فالأمر لا يتعلّق إذن بموضوع «اجتماعي».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٢، يُقدِّم الخطوط العريضة لقصّة لن يقع تناولها من جديد في أيّ مكان آخر في القرآن(٣٠١).

(٣٠١) يجب البحث عن عناصر كرونولوجيا الخَلْق في التّطابقات القرآنيّة انطلاقًا من الرّقم «ستّة» الذي يشير (في هذه المقاطع) إلى أيّام الخَلْق السّتة، سورة الحديد، ٤ (سورة مدنيّة بالرّغم من رقمها المرتفع في المصحف) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ تنتهي الآية بالتّأكيد على العلم الكلّي للّه الذي ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ سورة ق، ٣٨ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (لفظة «لُغُوب» تدلّ، بالنّسبة للبشر وأنعامهم، الإنهاك والتّعب بعد ترحالٍ طويل في الصّحراء؛ في هذا المقطع ليس هناك أيّ ذكر لـ «العرش» الذي نجده حاضرًا في كلّ الآيات الأخرى)؛ سورة السّجدة، ٤ (نجد فيها ذكر اللّه، والأيام السّتّة والعرش؛ تنتهي الآية بالتّأكيد على أنّه لا «وَلِيّ» ولا «شَفِيعَ» غيره؛ يبدو أنّ دور الشّفاعة (لدى الغيب؟) كان قد أُوكِل إلى القوى الحامية للقبائل، الارباب والرّبّات، هذا إذا صدّقنا ما جاءت به الآيات الشّيطانيّة؛ إذ يبدو أنّها كانت قد اعترفت بوضوح بهذه القدرة للقوى الحامية المحلّية مثل العُزّى (انظر سورة النّجم، ٢٠ وتفسيراتها القروسطيّة على غرار تاريخ الطّبري، ج ١، ١١٩٢-٩٦؛ نجد ملخّصًا لقصّة الطّبري عند M. Gaudefroy Demombynes, *Mahomet*, p. 86، وكذلك نجد المراجع التي يقدّمها R. Paret, *Kommentar*, p. 461؛ بخصوص العزّى، انظر أعلاه، الهامش ٣١)؛ سورة الفرقان، ٥٩ (اللّه، الذي يدعى هنا «الرَّحْمَنُ» يخلق العالم في ستّة أيّام ثم يستوي على العرش؛ بقيّة الآية تحثّ على التماس التّأكيد، لمن لا يزال في شكّ من أمره، من لدن «خَبير» (أي لدى عالِم من علماء بني إسرائيل، حسب منهجيّة مَرجِعيّة مكيّة بدون منازع: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾)؛ سورة هود، ٧ (اللّه يخلق العالَم في ستّة أيّام ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾)؛ سورة يونس، ٣ (تأتي هذه الآية بعد أن يردّ اللّه على الكافرين الذين لم يصدّقوا برسالة محمّد وتعجّبوا من أن اللّه أوحى إلى «رَجُلٍ» (محمّد) من بينهم، فيؤكّد اللّه بكلّ قوّة ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ هو الذي خلق الكون في ستّة أيّام ثمّ استوى على عرشه ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾؛ ثمّ يؤكّد بعد ذلك أنّه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾؛ سورة الأعراف، ٥٤ (الله يخلق العالَم في ستّة أيّام ثمّ يستوي على عرشه يُدبِّر سير اللّيل والنّهار وكذلك النّجوم، الشّمس والقمر، تأتي هذه الآية بعد التّأكيد على عدم جدوى شفاعة شُفعاء السّوء يوم الحساب)؛ مجموعة آيات سورة فصّلت، ٩-١٢ تتموضع خارج هذا الإطار وهو بالنّهاية إطار ضعيف جدًّا من النّاحية الوصفيّة: فبعد إنكار أخير من طرف القبيلة المكيّة (قريش) التي يحاول محمّد أن يُنذِرها (الأعراف، ٢-٨)، يُذكِّر القرآن بعمل الخالِق الذي من المفروض أن يُستَخدَم كحجّة كافية للّذين لا يؤمنون؛ وهي المخطّط الحقيقي الوحيد لسرد حول «كرونولوجيا» للخلق كان فحواها كالآتي: خلق اللّه الأرض في يومَيْن وأنتم (أي الكافرون) تجرؤون على أن تجعلوا «لَهُ أَندَادًا» (جمع «ندّ» وهي لفظة قليلة الظّهور في القرآن، ٦ استعمالات كلّها مكيّة متأخّرة أو مدنيّة)؛ ثمّ جعل اللّه الأرض صالحة للعيش (رفع فوقها الجبال «رَوَاسِيَ»، ووفّر فيها موارد العيش «أَقْوَاتَهَا» وذلك في ظرف أربعة أيّام؛ وفي الأخير بنى السّماوات «فِي يَوْمَيْنِ»، انطلاقًا من حالة بدائيّة عبّر عنها بلفظة «دُخَانٌ»(؟)؛ باستثناء سورة فصّلت فإنّنا نرى أنّ القرآن لا يتعرّض لقصّة الخلق إلّا من خلال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنّ الطّابع المتشظّي، بل وحتّى الهجين وغير المتجانس للثّيمة القرآنيّة للخَلق، لا شكّ فيه. يمكننا القول إنّ مسألة الخلق القرآنيّة لم تكتسب حقيقة على الإطلاق مكانة القصّة المستقلّة بذاتها. ولن ترقى إلى تلك المنزلة إلّا في عصر الشّروح والتّفاسير القرآنيّة. وهذه الأخيرة هي التي ستعيد، في صياغات وقع تكييفها مع الظّرف الجديد، المشاهد القصصيّة للخلق من أصل بيْبلي. وبالمقابل، فمهما كان نبعثر هاته الثّيمة، وهي من الواضح أنّها من أصل خارجي وتمّ تقبُّلها على أنّها كذلك - كما يشهد بذلك الرّجوع المباشر إلى «خبير» (من بني إسرائيل) كما جاء في سورة الفرقان ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾، فهي تبدو أنّها مُوظَّفة توظيفًا بحتًا في الخطاب القرآني. وبالفعل، لا يمكنها أن توجَد هنا بمحض الصّدفة. وليس في مقدورها إلّا أن تستجيب لهدَف محدَّد. والأمر ذو دلالة بوجه خاصّ يبدو معه أنّ الهدف كان جديدًا ويشكِّل خطّ قطيعة داخليّة واضحة بما فيه الكفاية مع الوحيّ القرآني الذي نزل في مكّة في فترة سابقة.

فيما يخصّ القصص المتعلّقة بإبليس، وبآدم في الجنّة، أو بكرونولوجيا الخَلْق، فإنّ الثّيمة المتبادَلة بينها والمتواترة ليست ثيمة تشاركيّة مع قصّة بيْبليّة الأصل. وهي بصفتها هذه، فإنّ الحكايات المتعلّقة بالخلق تبدو بالنّهاية أنّها لم تُثِر اهتمام النّص القرآني بما يكفي. وعلى النّقيض من ذلك، نرى أنّه كلمّا تقدّم الوحي المكّي برزت مرجعيّة يمكن أن نقول عنها إنّها مهوسَة بالمآسي والعذابات المذهلة التي تنتظر أولئك الذين لن يجدوا أنفسهم بالنّهاية، في اليّوم الموعود، موالين لإله القرآن. وقد نُسِبت لهذا الأخير كلّ الأسماء التي تعرِّف به دون أيّ التباس. فهو دائمًا «الرّب»، اسمه القديم الذي يشترك فيه مع القوى الحامية للقبائل، ومؤنّثه «ربّة»، وجمعه «أرباب». ولكنّه أيضًا هو «الرّحمن»، اسمه الذي يُقال إنّه من أصل يمَني (؟)، أو مسيحي أو يهودي (؟). وبالأخير، شيئًا فشيئًا أصبح هو «اللّه»، وهو على الأرجح تفخيم للكلمة العربيّة «إله» (جمعها، آلهة) التي تُعيِّنه أحيانًا بشكل موازٍ (انظر، على سبيل المثال، في المقاطع التي نحن ندرسها، سورة فصّلت، الآية ٦ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ

الصّيغة النمطيّة المتمثّلة في «ستّة أيّام» و«العرش»؛ وهما صيغتان تتكرّران في آية واحدة دون أن يشكّل ذلك أبدًا قصّة بأتمّ معنى الكلمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إِلَهٌ وَاحِدٌ (. . .) وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾. العنصر السّامي آل/ إل، المعروف في كلّ العالم السّامي منذ أقدم العصور، هو بكلّ تأكيد أصل هذا الاسم السّماوي الذي يبدو أنّه يُعيِّن في العربيّة فكرةً ضمنيّة تعني «حماية» جماعة من البشر، شَعْب أو قبيلة، رُحَّل، سكّان حاضرة أو مملَكة، وذلك حسب السّياقات التي كانت بطبيعة الحال سياقات جدّ متنوِّعة.

إنّ الولاء للإله القرآني هو بالتّأكيد حاضر منذ البداية. وهو بدون أدنى شكّ موجود فيما سنقدِّمه لاحقًا على أنّه الطّبقات القرآنيّة التي هي على الأرجح الأكثر قِدَمًا: السّور «الذّاتيّة» أو السّور التي تخاطب القبيلة المكيّة. الشّريحة التي نحلّلها الآن تتّسم بأنّها تضخيم للمسار البدئي. فالولاء الأوّل يصبح فجأة حصريًّا تمامًا. فالإنكار الذي كانت القبيلة قد واجهت به فردًا من أفرادها [محمّد] كان يدّعي تلقّيه وحيًا صادقًا، وقع ردّه على من كان يُجاهِر به. فأصبحت الآن ولاءات القبيلة لما هو خارق للطّبيعة هي التي يقع نكرانها. ويتمّ نكرانها بلهجة عنيفة بأشدّ ما يكون. وعندها سيدخل الخطاب القرآني فيما نسمّيه عادة «التّوحيد». فهذا اللّفظ المشترك مع عقائد أخرى بإمكانه أن يكون مريحًا يفي بالغرض. ويمكن أن نذهب أبعد للقول بأنّه استُبيح معناه وأهدِر هدرًا مشِطًّا. إنّ الاستعمالات الموسَّعة في ميادين شتّى لهذا الصّنف من المفاهيم، التي تعتقد ثقافات وحضارات مختلفة أنّها تتقاسمه، تُنتِج عبر التّاريخ آثارًا سلبيّة للغاية. فهي تؤدّي إلى محو كلّ الخصوصيّات والسّمات الذّاتيّة التي تتعلّق بحقبة مّا، وبمجتمع مُعيَّن، وبأرض محدَّدة. . . وباختصار إلى كلّ ما يؤسِّس للفكر التّاريخي والمقاربة التّاريخيّة. وأبعد من محو الفوارق قد يتعلّق الأمر هنا بالتّطوّر ذاته للتصوّرات القرآنية التي تجد نفسها جرّاء ذلك مقنَّعة بصفة نهائيّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner